في ذكرى انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري

حكومة الجبهة الشعبية ومطالب الجزائريين

الأستاذ: عبد الرزاق تومیات

طالب دكتوراه (جامعة الجزائر 2)

الملخص:

نعرض من خلال هذه الورقة جانبا من السياسة الفرنسية اتجاه الجزائريين في ثلاثينيات القرن 20م ممثلة في حكومة الجبهة الشعبية بقيادة ليون بلوم (1872-1950م)، وردود فعل الحركة الوطنية الجزائرية ممثلة في الفعاليات السياسية من أحزاب وجمعيات إزاء هذه السياسة من خلال المؤتمر الاسلامي الجزائري الذي تأسس سنة 1936م بدعوة من الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889- 1940م) رئيس جمعية علماء الجزائر المسلمين والدكتور محمد الصالح بن جلول (1896-1986م) رئيس كتلة النواب في عمالة قسنطينة، ورغم الاختلاف في وجهات النظر بين مختلف الأطراف إلا أن المجموعة الجزائرية اثبتت في خطوة غير مسبوقة مدى تمسّكها بمطالبها السياسية والاجتماعية ووقوفها في صف واحد في مواجهة مناورات السّاسة الفرنسيين من راديكاليين واشتراكيين، ودلّ هذا الأمر على تطور واضح في الفكر السياسي الجزائري رغم صعوبة المرحلة وتداعي الأوضاع على الصعيد الدولي .

المقدمة :

إن أحد أهم الأسباب التي دفعت بالجزائريين قُدُمًا إلى مطالبة الفرنسيين بحلول مستعجلة لإصلاح ما أفسدته السياسة الاستعمارية على مدار قرن ونيف من الزمن، هو التغييرات العميقة التي طرأت على الساحة السياسية الفرنسية، إذ تمخض تحالف الأحزاب الثلاثة الاشتراكي، الراديكالي والشيوعي عن ميلاد

ائتلاف حكومي إثر انتخابات 26 أفريل1936م دُعِيَ بالجبهة الشعبية Le Front Populaire ولقيت ترحيبا حارّا في الأوساط الفرنسية على أمل إعادة الاستقرار السياسي والاقتصادي لفرنسا في فترة ما بعد الأزمة الاقتصادية العالمية[1].

كان لتلك التطورات الوقع الايجابي أيضا على الساحة الجزائرية، سيما وأن البرنامج الحكومي للتكتل الجديد أخذ على عاتقه مهمة إرسال لجان تحقيق برلمانية لتقصّي الأوضاع السياسية، الاقتصادية والاجتماعية في المستعمرات الفرنسية لما وراء البحار، خاصة شمال إفريقيا والهند الصينية تمهيدا لإجراء إصلاحات ملموسة[2]، وكنتيجة لذلك وجه الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889- 1940م) نداءا إلى أهالي الجزائر المسلمين يشدّ عضده الدكتور بن جلول (1886- 1986م) رئيس جمعية النواب في عمالة قسنطينة للدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي جزائري يستهدف البحث بشكل عاجل في مصير ستّة ملايين جزائري[3].

انعقد المؤتمر الإسلامي الجزائري يوم الأحد 07 جوان 1936م في قاعة سينما الماجستيك (الأطلس حاليا) وكان الحضور قويا، فالصحف الفرنسية قدّرت عددهم بنحو الأربعة آلاف شخص بينما الشيخ البشير الإبراهيمي (1889- 1965م) فيشير إلى أن العدد بلغ السبعة آلاف أو يزيدون[4]، وتراوح موضوع المطالب بين ما هو سياسي وبين ما هو اجتماعي، وتركزت أساسا حول حرّية القول والفكر والتنقل والتعليم العربي ورفع القوانين الاستثنائية الشاذة (الأهالي L'indigénat) مستندين في صياغتها إلى جملة الاقتراحات التي تقدم بها السيناتور موريس فيوليت Maurice violette[5]سنة1933 م، والتي أثارت زوبعة في كلّ من الجزائر وفرنسا بين مؤيّد ومعارض[6]ودلّ المؤتمر على تطور واضح في الفكر السياسي الجزائري، ورغم هزالة المطالب الجزائرية إلا أنها قوبلت بمعارضة شديدة من قبل المستوطنين وممثليهم في البرلمان، لكن بوصول الجبهة الشعبية إلى الحكم ظهرت محاولة لإحياء المشروع من جديد دعى إليها رئيس الوزراء ليون بلوم Léon Blum، تقضي بإدماج فئات من الجزائريين يقدّر عددهم بنحو عشرون ألفا ومنحهم صفة المواطنة الفرنسية، مع السماح للعمال الجزائريين بتشكيل نقابات ونَيل بعض الامتيازات الاقتصادية[7]، وقد وافقت على

المشروع مختلف الأطياف الجزائرية من نواب، علماء، ونخبة باستثناء نجم شمال إفريقيا الذي رفضه رفضا باتا واعتبره مقدمة لتفتيت أوصال المجتمع الجزائري، لأنه لا يشمل إلا ذوي الامتيازات والمثقفون ثقافة فرنسية، بينما تجاهل تمنيات السواد الأعظم من الجزائريين وضِعاف القوم أو ما تُطلق عليهم صفة الرعايا[8]، وكنتيجة لتلك التطورات على الساحة السياسية الفرنسية وتأثيراتها المباشرة على مجريات الأمور في الجزائر، قُدِّمت جملة المطالب التي أقرّها المؤتمر الإسلامي الجزائري بواسطة وفد شُكِّلَ لهذا الغرض، وتنقل إلى باريس لطرح المطالب ومناقشتها مع مختلف الفعاليات والأوساط السياسية في فرنسا، وعلى رأسها رئيس مجلس الوزراء ليون بلوم الذي أبدى استعدادا لاستقبالهم والاستماع لانشغالاتهم ومُقترحاتهم.

زيارات ومقابلات وفد المؤتمر الإسلامي:

الزيارات والمقابلات الرسمية:

كانت أولى المقابلات التي أجراها الوفد مع الوالي العام سابقا ووزير الدولة موريس فيوليت يوم الاثنين 20 جويلية 1936م، ودامت لساعتين جرى خلالها بسط المطالب المتعلقة بحرية التعليم العربي في المساجد ورفع الضيم اللاحق به، والمطالبة بتأسيس جمعيات دينية في أنحاء القطر الجزائري، وقد خاطبه الشيخ عبد الحميد بن باديس بحجم المضايقات التي تتعرض لها اللغة العربية في ديارها وعن حال الجزائريين إزاء تلك المظالم، وعلى الرغم من الوعود التي قطعها الوزير فيوليت بشأن دراسة انشغالاتهم وبسطها للمناقشة على طاولة مجلس الوزراء، إلا أن ابن باديس لم يُخْفِ ملاحظته حول مدى تحفُّظ فيوليت تُجاه جملة الاقتراحات المتعلقة باللغة العربية[9].

وتوجه الوفد عقب ذلك إلى مكتب وزير الداخلية راوول أوبو Raoul Aubeaud وجرى خلال الاجتماع التطرق للمعاملة السيئة التي يتعرض لها الأهالي الجزائريون، مقارنة بما يتلقاه المعمرون من عناية واهتمام، وانْفَضَّ

الاجتماع بتقديم أوبو لجمله وعود منها عزمه القيام بزيارة إلى الجزائر للاطلاع على مختلف تداعيات الأوضاع، وإيجاد حلول سريعـة لهـا[10].

كما كان للوفد اجتماع بوزير الحرب الفرنسي إدوارد دالاديه Eduard Daladier[11]المحسوب على تيار اليمين المتطرف، والمعارض بشدة لأية "تنازلات" تُقَدَّم للجزائريين، وفي ردٍّ منه على مطالب الوفد المتعلقة بالحصول على النيابة في البرلمان مع المحافظة على الأحوال الشخصية الإسلامية، صرّح جَهْرَةً بأنه سيكون من أشدّ المعارضين لهذا المطلب فيما لو عُرِضَ للمصادقة عليه، ولم يُبْدِ الشيخ ابن باديس استغرابه من تصرف وزير الحرب«...والذين يعرفون دالاديه لا يستغربون منه هذا، ورأيه هذا هو رأي الراديكاليين إلا القليل، فلو عُرضت مسألة النيابة في البرلمان ولقيها دالاديه وأكثرية حزبه بالمعارضة مع من يعارضها من أحزاب غير الجبهة الشعبية لقُضي عليها بالفشل قطعـا»[12].

كما زار الوفد رئيس الوزراء ليون بلوم يوم الجمعة 24 جويلية 1936م في حضور موريس فيوليت وجول موك Jules Moch الكاتب العام لرئاسة الوزراء، وأشار ابن باديس إلى حسن الاستقبال الذي حضي به أعضاء الوفد في مكتبه فرحّب بهم قائلا:« إنني مسرور بزيارة مسلمين ليهودي وديمقراطيين لديمقراطي وفرانسويين لفرنسي»[13] وبهذه الروح ألقى جميع خطابه، وفي ذات المقام تجدر الإشارة إلى الحوار الذي دار بين الشيخ ابن باديس وليون بلوم حول القلق الذي يساور أعضاء الوفد من مغبّة نبذ الحكومة لمطالب الأمة الجزائرية، فأشار بهذا الشأن«...الأمة الجزائرية المتألّمة ليس ألمها ضد جنس ولا ضد دين ولا ضد فرنسا وإنما ألمها ضد الظلم، ولهذا لما جاءت الحكومة الشعبية وتوسّمت فيها الحرية والعدالة أعطتها كل ثقتها وأعلنت سر ها بها وأرسلت هذا الوفد، فإذا رجعنا إليها ببعض من مطالبها زادت ثقتها، وإذا رجعنا بأيدينا فارغة انعكس ذلك الفرح وحصل عن انعكاسه ضرر عظيم يستغله أضدادنا وأضدادكم»[14]، وإثر ذلك أجاب رئيس الوزراء بأن المطالب المطروحة هي محلّ دراسة واهتمام من قِبَل أعضاء الحكومة، وأنه يسهر على تحقيقها ومتابعتها بشكـل جدي مع أعضاء حكومتـه.

المقابـلات الشعبيـة:

على هامش اجتماعات الوفد مع بعض أعضاء حكومة ليون بلوم، كانت لهم لقاءات أخرى بممثلين عن أحزاب الائتلاف الحكومي، واستقبلهم النائب الاشتراكي ريجيس Règes يوم الثلاثاء 21 جويلية 1936م في مقرّ مجلس النواب، ورافق الوفد في مقابلاته مع ممثلي الأحزاب، وبَدَتْ تلك الأحزاب موافقة ضِمنيا على مطالب الوفد باستثناء ممثلي ونواب التيار الراديكالي، الذين تحفظوا وفضّلوا التريّث إلى حين إرسال لجنة تحقيق برلمانية لتقصي الأوضاع، وإعطاء تصوّر واضح عن الوضع في الجزائر، ومن ثمّة إصدار حكم نهائي بشأن تلك المطالب على مستوى أروِقة البرلمان[15].

ولم يشأ أعضاء الوفد إلا أن يطلعوا الصحافة والرأي العام الفرنسي على مطالب الجزائريين، وذلك من خلال جلسة عُقِدت لذلك الغرض بدعوة من الدكتور بن جلول رئيس الوفد، وقد نوّه ابن باديس بما قدمته الصحافة الفرنسية بمختلف توجهاتها ومشاربها من خدمة للقضية الجزائرية، وذلك بمعالجتها لأول مرة على صفحاتها وما انجرّ عن ذلك من إطلاع للرأي العام الفرنسي على ما تمور به الساحة الجزائرية من تطورات ولفت للاهتمام اتجاهها[16].

وعلى هامش اجتماعات رجال الوفد مع ممثّلي السياسة الفرنسية وبعض الفعاليات الشعبية من قادة أحزاب وممثلي صحف، وجبت الإشارة إلى اللقاء الحاصل بين الشيخ ابن باديس من جهة وممثلين عن نجم شمال إفريقيا برئاسة مصالي الحاج[17] من جهة أخرى، جرى الاجتماع الأول في مقر إقامة الوفد (الفندق الكبير) بباريس في غياب الدكتور بن جلول الذي رفض مقابلتهم[18]، ودار الحوار أساسا حول بعض المطالب السياسية المتعلقة بإلحاق الجزائر بفرنسا ومسألة التمثيل النيابي، التي أشار ممثّلو النجم بأنها تتعارض مع الذاتية الجزائرية ومع تطلعات النجم الاستقلالية[19].

وأشار مصالي الحاج في مذكراته إلى اجتماعه بابن باديس في مقهى تلمسان في مونبرناس Montparnasse (بباريس) مخاطبا ابن باديس بأنه يدافع عن

قضية خاسرة وعن سياسة ضعيفة ومحكوم عليها بالفشل في إشارة منه إلى مطالب المؤتمر، في الوقت الذي بدا فيه ابن باديس متضايقا[20](20)،ولعله مما يؤكد ذلك الرأي الذي انفرد مصالي بالإشارة إليه هو تخوف ابن باديس الواضح من قوة نفوذ التيار الراديكالي في البرلمان وضغطه لإفشال مساعي وفد المؤتمر، وقد عبّر ابن باديس عن ذلك بقوله:«...رجعنا وأكثر الرّفاق يظن أن المطالب المستعجلة إذا لم تكن صاحبتنا فإنها لا تتأخر عنا بأكثر من أسبوع، وإذا تقاعست وتباطأت فلا أكثر من شهر، أما أنا فلم – أكن مع الأسف – على هذا القدر من الرجاء فالجبهة الشعبية تعتمد في بقائها على الراديكاليين وهؤلاء ما يزال فيهم من عرفنا سياستهم الاستعمارية في العهد القديم وهم ما يزالون عليها في العهد الجديد، وقد سمعت عنهم حديث لجنة البحث فحقّق لديّ ما ظننته فيهم وما توقعته منهم، فكنت أعتقد أن المطالب ستتأخر وأن هذا الصيف لا يكون فيه شيء، ولكن لابدّ من التمسك بحبل الرجاء إلى حين، وقد صدق الواقع ظنّي وها أنّ الصيف قد مضت مُدّته وها أنّ لجنة البحث قد تعيّنت وها نحن من المنتظرين »[20].

وبعد كل تلك الجهود المبذولة من قِبَل الوفد في سبيل تحقيق أماني المجموعة الجزائرية، عاد الوفد من رحلته يوم الأربعاء 29 جويلية 1936م، ويصور أحد الشهود العيان منظر عودته إلى الجزائر واقتباله من طرف الأهالي قائلا:«...وما كادت شمس يوم الأربعاء تشرق حتى غصّت المرسى والطريق المؤدية إليها على طولها بالمُقْتَبِلِين، وامتلأت الزوارق بالكثير من الناس لاستقبال الباخرة...ولما دنت الباخرة من المرسى علا الهتاف والتصفيق، فكان منظر تلك الأفواج الغفيرة رائعا، وما كاد رجال الوفد يطؤون الأرض حتى اقتبلهم الأولاد الصغار بباقات الأزهار...وكانت بطحاء الحكومة ليس فيها موضع لِقَدم من شدّة الازدحـام» [21].

وهكذا أدّى وفد المؤتمر الإسلامي ما عليه من واجب تَحْدُوه آمال ترسيم مطالب المجموعة الجزائرية وتحقيقها على الأرض، استنادا إلى سلّة وعود وزراء حكومة الواجهة الشعبيـة، لكن مطالب الجزائريين ثبت مع مرور الوقت أنها ضلت حبيسة أدراج الحكومات الفرنسية المتعاقبة ولم يتحقق منها شيء يذكر لأن

الساسة الفرنسيون مهما كانت مشاربهم واتجاهاتهم فإنها تصب في المصلحة العامة للدولة الفرنسية التي تأبى ضياع الجزائر من فرنسا، ومع ذلك أثبت المؤتمر لأول مرة اللُّحْمة الوثيقة التي سادت بين قادة الحركة الوطنية الجزائرية في ثلاثينيات القرن الماضي، وزادت قوة خلال ما استتبع هذه المرحلة من أحداث فآتت أُكُلَها ضعفين.

المصادر والمراجع:

(1)Lucie Mazauric, Vive Le Front Populaire! Avec André Chamson 1934_ 1939 Librairie Plon, 1976, pp128- 129 .

(2) Jaques Duclos, Mémoires 1935_ 1939 Aux jours Ensoleillés du Front populaires Librairie Arthème, Fayard, 1969, p448 .

(3)Claude Collot et Jean Robert Henry, Le Mouvement National Algérien, Textes 1912_ 1954, Lharmattan, Paris1981, p65.

(4) Ibid, p70، انظر أيضا: البصائر، السنة الأولى، عدد 23، 12 جوان 1936م.

(5) موريس فيوليت Maurice Violette: اشتراكي فرنسي تولى منصب حاكم عام في الجزائر بين سنتي 1925-1927م، ثم عضوا في مجلس الشيوخ فوزيرا في عهد حكومة ليون بلوم سنة 1936م، أصدر كتابا بعنوان ?L'Algérie Vivra t'elle سنة 1933م ضمّنه أفكاره وزبدة تفكيره الاشتراكي.

(6)Ali Merad, Le Réformisme musulmans en Algérie 1925_1940, Monton, paris 1967, p413.

(7) ليون بلوم، Léon Blum(1872-1950م) كاتب ومحامي من يهود فرنسا ولد بباريس، ولج السياسة من باب البرلمان سنة1919م، ترأس ثلاث حكومات في فترات متقطعة: الفترة الأولى بين03/ 05/ 1936م إلى22/ 06/ 1937، الفترة الثانية بين13/ 03/ 1938 إلى1/ 04/ 1938م،الفترة الثالثة من16/ 12/ 1946م إلى 16/ 01/ 1947م.

George Le Franc, Histoire du Front populaire 1934_ 1938, Payot, 1965

(8) Jaques Duclos, Op cit,p278

(9) Ahmed Messali Hadj, Mémoires 1898_ 1974, Edition Jean Claude Lattes, paris 1985, p23

(10) الشهاب، ج7، م12، أكتوبر1936م، ص308.

(11) نفسه المصدر

(12) إدوارد دالاديبه سياسي فرنسي ولد بكاربنترا عام 1884 م، شغل منصب نائب في البرلمان عن التيار الراديكالي بين سنتي 1919-1940م و1946-1958م تقلد عدة مناصب وزارية: المستعمرات، الأشغال العامة والحربية ثم رئيسا للوزراء سنوات1933- 1934م و1936-1937م و1938- 1940م تعرضت فرنسا في عهده لضغوط عديدة من جانب ألمانيا النازية واشتهر بتوقيعه لاتفاقية ميونيخ عام 1938م التي سمحت للألمان بابتلاع النمسا.

Grand Larousse, Encyclopédique, TOM3,Librairie Larousse, Paris, 1961, – p759.

(13) البصائر، السنة الأولى، عدد38، 09 أكتوبر1936م.

(14) الشهاب، ج7، م12، أكتوبر1936م، ص309 انظر أيضا:

André Nouschi , La Naissance du Nationalisme Algérienne, Edition de Minuit, p86_87 , paris 1979

(15) الشهاب، ج7، م12، أكتوبر1936م، ص 309.

(16) البصائر، السنة الأولى، عدد30، 21 جويلية 1936م.

(17) البصائر، السنة الأولى، عدد38، 09 أكتوبر1936م.

(18) يعود السبب الرئيس لرفض الدكتور المذكور مقابلة ممثلي النجم إلى الاختلاف الواضح في الأهداف والتوجهات، وحتى لا يحمل الاجتماع طابع الرسمية فيثير بذلك غضب الإدارة الفرنسية، سيما فيما يخص موقفها الواضح من نشاط النجم، لكن المثير للانتباه أن الدكتور بن جلول كان قد خاطب أحد نشطاء النجم في الجزائر ممن حضروا الاجتماع الختامي أنه سيشرك مصالي الحاج في مناقشة المطالب الجزائرية حين وصول وفد المؤتمر إلى باريس وهو الشيء الذي لم يحصل كما رأينا . البصائر، السنة الأولى، عدد 29، 05 جمادى الأولى 1355هـ / 24 جويلية 1936م.

(19) Messali hadj, Op cit, p 188.

(20)Ibid, p220 .

(21) الشهاب، ج7، م12، أكتوبر 1936م، ص311.